

نسيب عريضة شاعر الطريقي

بقلم منى نسيب

مستطاع اي باحث ان يحلل الظروف الحارقة او ان يعلل العوامل الخفية التي جمعت على صعيد واحد وفي زمان واحد حفنة من الشباب السوري واللبناني فكانت « الرابطة القلمية » . وكان انطلاق في الادب وانعتاق ، وكان شعور حي وفكر ناثر ، وكان صدق واستقلال ، وكانت جرأة وحماسة ، وكان فن وهدف مع الايمان بقدسية الادب ورسالته . وإذا الادب اكثر من قصيدة ومقالة . فهناك القصة ، والرواية ، والمسرحية ، والملحمة . وهناك النقد الذي ليس للشفي ولا للتبخير ، بل للتمحيص والتحليل . وهناك افلام تتغلغل في زوايا النفس فلا تحجم عن نبش مخبأها وعرضها على الناس .

لقد كان من ثورة « الرابطة القلمية » على التقليد ان خلقت أدباً إنسانياً شاملاً ، وخلقت شعراً لا أثر فيه للفخر والحماسة والهجاء ، والتسكع في المدح ، والتفجع الكاذب في الرثاء . اما الغزل فقد اقلعت فيه عن اساليب القدامى . واما القوالب الشعرية فقد زاوجت فيها ما بين البجور الكاملة ومجازيتها ، والبحور التي تدانها في جرسها ، ونوعت القوافي ، فقسمت القصيدة الواحدة الى مقاطع ، جاعلة لكل مقطع قافية غير التي للذي قبله أو بعده . ومن ثم فقد ربطت القصيدة من اولها الى اخرها بفكرة واحدة او قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الاوصال ، عديمة الانسجام . ذلك مع الافتتان في تبديل الصور وتلوينها ، وفي تراوج الانغام وتنويعها . وجميع هذه الصفات - وقد باتت اليوم مألوقة - تتجلى على اتم وجه في نتاج شعراء « الرابطة » وعلى الأخص في نتاج نسيب عريضة .

ولد نسيب عريضة من ابوين مسيحيين ، ارثوذكسيين في مدينة حمص عام ١٨٨٧ وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الروسية هناك . ومنها انتقل عام ١٩٠٠ الى دار المعلمين الروسية في ناصرة الجليل . وقد جئتها بعده بعامين . فما لبث ان انجذبت اليه بفضل ما أنسته فيه من دماثة في الخلق ، واتزان في العقل ، وطهارة في القلب واللسان ، وذكاء في

اطل القرن العشرون على الديار العربية وهي رازحة تحت اثقال أربعة قرون من الحكم العثماني . يتبختر الفقر في ارجائها ، ويتربع الذل في قلوب بنيتها وبناتها ، وتخيّم العتمة على عقول كبارها وصغارها . وليس في تلك العتمة سوى ضباع التعصب الديني وذئابها تسرح وتمرح ، وتنعم من قبل الدولة الحاكمة بعطف عظيم . اما الاقلام حينما وجدت - إلا القليل منها - فكانت ملجئة ولا عمل لها غير تجييد الحكم والاسياد ، وغير التلهي بالاحاجي اللغوية والبهرجة البيانية . إن نظمت او نثرت زحل نظمها ونثرها عن صفحات القواميس لا عن صفحات القلوب والافكار ، وفاحت من الاثني روائح التقليد والزلفى والمجاملة والخنوع . فالأدب السائد آنذاك كان في الغالب ادب القصيدة وادب المقالة : والشاعر الشاعر والنثر النثر من نظم الكثير ونثر الكثير بأقل ما يمكن من الهفوات اللغوية والعروضية ومن غير ان يقول شيئاً حرياً بالقول .

لقد كان الفكر مغلقاً ، والذوق آسناً ، والارادة الخلاقة مشلولة . فما يجرؤ شاعر ان يجيد في القصيدة الواحدة عن الروي الواحد ، ولا ان يتخطى الابواب التي طرقها الشعراء العرب منذ اقدم الازمنة من فخر وحماسة ، ومدح وهجاء ، وغزل ورثاء وما اليها ، ولا ان ينوّع في الاسلوب والمهندسة . فالفخر والحماسة والمدح مغلاة ينجّها الذوق السليم ويعافها القلب الصادق . والهجاء قدح وشتمية ونميمة ؛ والرثاء تفجع بغير غصة وبكاء بغير دموع ؛ والغزل وصال وصد ، وعتاب وشكوى ، واكباد حرّى ، وأجفان مقرّحة ، وسهاد وقتاد ، وخدود ونهود الى آخر مفاتن الحب ومتاعبه كما تراها عين بدوي . ومحسّها قلب صحراوي .

ذلك الادب بعينه هو الذي حمله المهاجرون الى ديار غربتهم في بدء هجرتهم مثلما حملوا الجو الروحي القاتم الذي نشأوا فيه وترعرعوا . وفي مثل ذلك الجو كان على الحركة الادبية التجديدية ان تشق طريقها . وقد شقته بما يشبه الاعجوبة . إذ ليس في

الشرقي من مكتبة نيويورك العمومية فيغرق الساعات الطوال في مطالعة ما يستهويه من المجلدات العربية . وقد دعاه بعضهم « دائرة المعارف » لكثرة ما وعى من أخبار العرب ونواديرهم . وكان من الطبيعي ان يضيق صدره بالتجارة بعد بضع سنوات فطلقها ليؤسس مطبعة « الاتلنتيك » وليصدر مجلة « الفنون » . وكان يحسبه طلاقاً لغير ما لقاء .

إلا ان « الفنون » التي كانت بمظهرها وترتيبها وتبويبها فتحاً جديداً في دنيا الصحافة العربية ، والتي تلاقى على صفحاتها

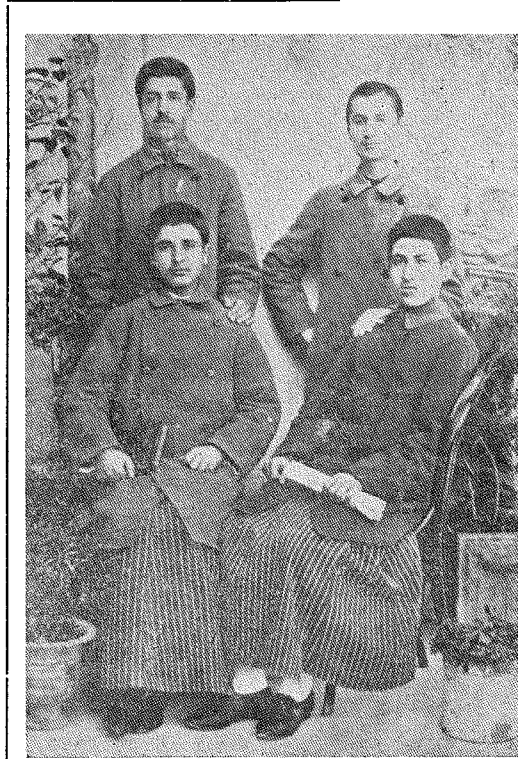
اقلام فتيه كان لها الفضل الاكبر في خلق النهضة الادبية الحديثة ما لبثت ان احتجبت بعد صدور عددها العاشر لان نفقاتها كانت تفوق دخلها بكثير . وباحتجاب المجلة توقفت المطبعة عن العمل . فكانت الحسارة جسيمة على قلب نسيب وجيبه معاً . وكان وقعها عليه وقع الصاعقة . وعلى الاخص لان المال الذي دفعه في مشروعه لم يكن ماله . بل كان ابوه هو الذي امدّه به من حمص .

كان ذلك قبيل الحرب العالمية الاولى . وعاد نسيب يجمع ما تبقى من فلول آماله وعزيمته ليعيد الكرة . فقد اصبحت الفنون لحماً من لحمه ودمماً من دمه . وتمكن ، بمعاونة بعض الاصدقاء ، من بعثها ثانية عام ١٩١٦ إلا ان الاقدار ما برحت تعانده . فلم يمض عامان حتى لفظت « الفنون » انجاسها . واذ ذاك أقلع نسيب نهائياً

عن التفكير بردّها اى الحياة . وعاد الى التجارة يستعين بها على سدّ رمقه . وفي هذه الاثناء توفي أخوه سابا الذي كان قد التحق به في نيويورك . وأحدقت به الاحزان والقلة والوحشة . فلأذ منها بالزواج . فلم يكن الزواج ذلك الملاذ الذي كان يرجو . إذ أنه لم يرزق اولاداً ، ولم يتغلب على وحشته ، ولا اتسعت موارد رزقه بل ، على العكس ، أخذت تضيق حتى كادت تنسدّ . عندها عاد نسيب إلى قلمه يستعين به على تحصيل كفاغه ؛

الذهن ، الى وداعة في النفس ، وطبع مسالم يكره الضغينة والحصام وميل فطري الى المطالعة والتحصيل . ولأنه كان كذلك ، وكان الاوّل بين رفاقه في صفّه ، اختارته المدرسة للسفر الى روسيا ومتابعة دروسه هناك على نفقة الجمعية الامبراطورية الفلسطينية .

كان ذلك في العام ١٩٠٤ فحالت الحرب الروسية اليابانية دون سفره . ولذلك عاد الى الناصرة ليملك في مدرستها سنة اخرى . وفي صيف ١٩٠٥ ودّعناه وودّعنا على امل ان يسافر في الخريف الى روسيا .



صورة تذكارية تجمع بين الاستاذين المرحوم نسيب عريضة (الجالس الى اليسار) والاستاذ ميخائيل نعيمة كاتب المقال (الجالس الى اليمين) ووراءهما صديقان . وقد التقطت هذه الصورة في الناصرة .

ولكنه اختار في النهاية ان يسافر الى نيويورك بدلاً من روسيا . اقول « اختار » ولعله من الاصح ان اقول « أرغم » ، فقد كان لوالده واعمامه مصنع للنسيج من النوع الذي اشتهرت به حمص حتى الماضي القريب . وكان بعض ابناء عمّه قد سبقوه الى نيويورك فلاقوا في تجارتهم حظاً من النجاح . وشقّ على والد نسيب ، وذهنيتته ذهنية التاجر ، ان لا يكون لابنه من التجارة مثل حظ ابناء عمه ، وان يجازف بمستقبله في بلاد قسيّة كروسيا فيكون نصيبه من علمه نصيب الكثير من قبله — وأعني القلة والحرمان والشقاء . ومن هذا القبيل جنى الوالد على نفسه وعلى ولده من حيث لا يدري فما كان الاوّل — ولن يكون الاخير — بين الوالدين الذين يختارون لأولادهم

طريقاً غير التي اختارتهما لهم الحياة . فيشقوق ويشقى اولادهم معهم عندما تردّم الحياة جميعاً الى الطريق القويم .

اشتغل نسيب اول ما اشتغل في مهجره « ماسك دفاتر » عند ابناء عمه . ولكن قلبه وفكره وخياله وإرادته وكل جوارحه كانت تهرب ابدأ الى دفاتر غير تلك التي تحفل باسماء الزبائن ، واصناف البضائع ، والاسعار ، والارقام السود والحمر . فكان ينظم الشعر في اوقات فراغه أو يلجأ الى الجناح

فاشغل محروراً في جريدة « السائح » ثم في « مرآة الغرب » ثم في « الهدى » ثم مترجماً في مكتب الانباء الاميريكي إبّان الحرب الاخيرة . وكان حزنه على شقيقه المتوفى في ربيع حياته ، ثم مأساه الروحية والمادية الكثيرة التي عقبته احتجاب « الفنون » قد هدت جسده الجبار . فطارت منه روحه الطاهرة في مدينة بروكلن يوم الخامس والعشرين من آذار سنة ١٩٤٦ .

كان ديوان « الارواح الخائفة » في عهدة المجلد عندما لفظ صاحبه آخر انجابه ، وهو الاثر الوحيد الذي نشر له حتى الآن ، ولولا بعض الاصحاب والمعجبين الذين اكتبوا لنشره لبقى حتى اليوم في ذمة الاقدار . ولنسب آثار شعرية غير « الارواح الخائفة » . وآثار نثرية قيمة منها قصتان بديعتان : « ديك الجن المحصي » و « حديث الصصامة » . وهذه كلها نشرت في الصحف ولكنها لم تنشر بعد في كتاب .

حسبك أن تقرأ قصيدة او قصيدتين من نظم نسيب عريضه لتشعر انك في حضرة شاعر فذ ، ربح الخيال ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ، خفيف الظل ، صافي النبعة ، صادق النبوة ، ولانه كذلك تراه يتنكب السبل المطروقة والقوالب المألوفة ، ويترفع عن كل مبتذل في اللون واللحن ، وفي المبنى والمعنى . فلا يتملق ولا يماري ، ولا يتصنع ولا يتحدلق ، ولا يبرق ويرعد ، او يرغي ويزيد ليهول عليك بالضجيج والضخب . بل هو بيت شعوره بالحياة بنأ أشبه ما يكون برذاذ المطر ينساقط

في سكينه الليل على البقاع العطشى فيؤنسها ولا يزعجها ، فيجيبها ولا يجرفها ، على عكس ما كان يفعله السيل العارم إذ يمر بالارض مرآً عنيفاً خاطفاً فيجرف التراب الذي على سطحها ، اما قلبها فيتركه في عطش وفي جفاف .

ما نذ صاحب « الارواح الخائفة » عن باقي إخوانه في « الرابطة القلمية » من حيث شعورهم بالقلق المادي في ديار هجرتهم - ذلك القلق الذي كان يصرفهم قسراً إرادتهم إلى ميادين التجارة والصناعة لحفظ الرمتق و صون ماء الوجه . فقد كان ميلهم الفطري إلى الادب يأبى عليهم التسكع على عتبة الدولار . وكانت الحاجة لا ترحمهم فتحملهم على وأد الكثير من بنات قرائنهم ترضيةً للدولار . وفي ذلك ما فيه من مرارة الرغائب المكبوتة ، والآمال المهذورة ، والارادة المقهورة . ولا هو شذ عن إخوانه من حيث شعورهم بغربتين ملازمتين : غربتهم عن الوطن المادي ، وغربتهم عن الوطن الروحي . ولعل الغربة الثانية كانت الاقصى على قلب نسيب عريضه . فلا عجب ان تسمع للاسى في شعره انغاماً شجية وان تبصر فيه كل ألوان الحيرة والوحدة والوحشة والحنين . ثم لا عجب في ان يطرح الشاعر على ذلك كله وشاحاً من الصوفية العميقة الصافية كالتى تطالعها على الاخص في منظومته البديعة « على طريق إرام » . قضى شاعرنا وهو ما يزال في الطريق الممتد بين وطنه الترابي ووطنه الروحاني فلا هو انعتق من الاول ، ولا هو ادرك الثاني ، بل ظل قلبه حتى آخر نبضة يتلفت حيناً إلى العاصي ورياضه والى عروس

العاصي فيناجياها :

« يا حمص ، يا أم الحجار السود ! .. »
وحيناً ينطلق في ضوء الخيال البعيد الى
نجوم وطنه الآخر فيهتف :
« إيه ضوئي البعيد ،
لُحْ و لُحْ ما تريد ،
ليس طرفي يجيد
عنك حتى يعود
لتراب ودود
لُحْ و لُحْ في الفضاء
قد سمعت النداء
ودليلي الرجاء
فغساه يقود
ظامئاً للورود »
أو هو ينتهر قلبه اللجوج فيقول :
« فاصمت و سِر في السكون
على طريق الجنون
لعله بعد حين
يبدو لنا وجه ربي .. »

وانا لو شئت ان أصف نسيب عريضه بكلمتين لا اكثر لاسميته « شاعر الطريق » ، فما وقعت في كل من وقعت عليهم من شعراء عرب وغير عرب على شاعر أفاض وأبدع في وصف طريق الحياة وما يرافق سالكيه من تحرق على معالم تركوها خلفهم وحنين الى معالم تلوح لهم من بعيد وتتمنع عليهم إلى حد ما فعل ذلك صاحب « الارواح الخائفة » . فهو بحس الحياة سيراً متواصلاً لا راحة فيه ولا توقف . وبحس الوجود طريقاً غاب أوله في غيبوبة الجهل وتوارى آخره في غيبوبة المعرفة . فلا ينقطع بحث قلبه إلى الامام .

« يا رفيقي على طريق الخزانى

سر فان القضاء أقصى مدانا .. »

« لماذا وقفت بخوف وحيره
أيا نفس عند الطريق العسيرة ؟
ألا امشي ، فإن الحياة قصيرة
ألا امشي !
ألا امشي وبعد الجهاد الحقيقي
سندرك آمالنا في الطريق
ونجني الاشعة قبل الشروق
ألا امشي ! »

أما ترى اي خيال خلاّق ، وذوق
لطيف ، وفن بديع تطل عليك في
قوله « سندرك آمالنا في الطريق ونجني
الاشعة قبل الشروق » ؟

ولنعد الى الطريق :

« يا اخي ، يا اخي المضاعب شتى
وبعيد مرادنا والموارد »

وامام العيون درب عسير

لم تسر قبلنا عليه الاوابد

فلنسر في الظلام ، في القفر في -
الوحشة ، في الويل - في طريق المجاهد .

فلنسر ، فلنسر ، وإما هلكنا

قبل ادراكنا المني والمواعد

فكفانا اننا ابتدأنا ، واننا ،

إن عجزنا ، فقد بدأنا نشاهد . »

اجل ! السير ، السير ! والطريق ،

الطريق ! وفي نهاية الطريق ذلك الهدف

الذي لا يوصف - هدف المعرفة

والطمأنينة ، والانعتاق من قيود اللحم

والدم . ذلك ما كان يحسه نسيب عريضة

إحساساً عميقاً متواصلًا . وذلك الاحساس

بما يلبسه من ألم وجوى ووحشة وحيرة

هو ما صورّه الشاعر تصويراً ما عرفت

له مثيلاً عند شاعر سواه . فهو ينوع

الوانه ، ومواده ، واجواءه ، وحالاته

النفسية تنوعاً لا يشعر القارئ معه باقل

نخمة او ملل كما هي الحال مع الكثير

من الشعراء الذين لا ينفكون يعالجون
موضوعاً واحداً الى ان يصبح في ايديهم
حيفة وهم لا يشعرون .

ولعل ابداع ما نظمه نسيب في

الموضوع الذي وقف عليه معظم نتاج

قريحته قصيدته التي عنوانها « طريق

إرّم » . وهي قصيدة طويلة متنوعة

المقاطع والاوزان ، غنية بالالوان

والألحان ، مشبعة بصدق الاحساس ،

بميدة عن التحذلق والزخارف الكلامية .

وهو يصور فيها جهاده وجهاد الذين هم

مثله في طريقهم الى الموطن الروحي الذي

رمز اليه بمدينة ارم ذات العهاد . واليك

بعض أبيات منها . قال في المقطع الذي

دعاه « اول الطريق » :

« قم تتخذ للمني جناحاً

يطير من عالم الحدود

عسى ترى في السماء درياً

نسير فيه ولا نعود

نؤمّ خدر الرؤى ونحظى

بما حرّمناه في الوجود

قم واترك الجسم حيث يبلى

فالموت خير من الجود »

وقال في مقطع آخر أسماه « القلوب

على الدروب » :

« يا حداة القلوب رفقاً

طال درب الهوى وشقاً

فالى م القلوب تشقى ؟

هل لها وقفة فتلقى

راحة في الدروب يا حداة القلوب ؟

★

يا قلوباً غدت نياقاً

سامها الوجد ان تساقا

... لا تهمنك الرمال

لا يعوقك العقال

قد سرى قبلك الجمال

وبه النور والكمال

فاسرعي يا قلوب واهتدي بالطوب

فما أعذب قوله « واهتدي بالطوب »

وقال في المقطع الرابع من القصيدة ،

وعنوانه « القفر الأعظم » :

« نجرت ناقة وجدي

على ضريح غريب

وقلت للقبر : هذا

قري الأسي والوفاء

اجمع ضيوفك اني مضيفهم في العشاء

فلم يلب نداءي

سوى الصدى في الفضاء

ولم يجيء لطعامي ضيف ولا لثرابي

ضاعت وليمة قلبي بين الحصى والتراب

وقال في المقطع الخامس وعنوانه

« القبروان » :

« يا ركب ، يا ركب صبراً

لم يبق الا اليسير

لا ترجعوا لقفار فيها الأمانى تغور

أمامنا الطود فامضوا

على الشعاب نسير

ولنرق طود التجلي ففي الذرى نستدير

هذا شعور لا يتكل في الوصول الى

سمع القاريء وقلبه على فخامة اللفظ

وجزائه ، وعلى امتداد الوزن ورنه

القافية شأن الكثير من قديم الشعر العربي

وحديثه . وانما يتكل على ما فيه من

رحابة في الخيال ، وصدق في الاحساس

وقوة في الابداع ، والابداع هو خلقك

ما لم يخلقه غيرك وتنكّب السبل المطروقة

والقوالب المألوفة مع الشعور بعزة النفس

والإخلاص لها قبل الاخلاص للناس .

فمن اخلص لنفسه اخلص لغيره . ولعل

الإخلاص من أبرز ما اتصف به نسيب

عريضه وقامه . فأنت قد تأخذ على شعره
شئ المآخذ . ولكنك لا تستطيع ان
تظعنه في اخلاصه . فهو شعر صادق ينضح
من وجدان صادق وخيال وثاب خلاق .
ما من شك في ان معرفة صاحب
« الأرواح الحائرة » للغة الروسية وآدابها
كان لها أبعاد الأثر في توجيه مواهبه ذلك
التوجيه من حيث التجديد في صياغة
القوالب وانتقاء المواضيع . اما من حيث
الشعور والنزعة الى التصوف فهو ليس
مديناً بذلك الا لظفرته السليمة ولتربته
الشرقية . وما اريد ان اوهمك ان كل
ما نظمه نسب عريضه كان من النوع
الذي عرضته عليك حتى الآن . فقد كان
مجدداً حتى في غزله وحكمه ووطنياته .
فاسمعه يتغزل :

« تعالي صباحاً الى غرفتي
وحلي بلطف عري رقدتي
لعلي اعود الى يقظتي » ...

واسمعه يري اخاه :

يا صاح ، يا ابن ابي وامي
ما كوجدي اليوم وجد
روح تخاطب شطرها
والشطر يُعرض لا يرد
ورنات صرح الموت دونها
وسور لا يهد
افتخرس الارواح اذ تنأى
وتنسى من تود ؟
أم تضمحلّ فما لها
عود ولا امل وخذ ؟

واليك مثلاً من وصفه في قصيدة
يخاطب بها « البرق » :

« أبقاً في الدجى جنّاً
وغفل بعد ما اسنى

تملّص ، فالتظى ، فانساب

يورث بعده الظنّاً
واليك نموذجاً من ابياته الحكيمية :
« لو حرق المرء في البرايا
لشام ما لا ترى العيون
ما حولنا عالمٌ خفي
تدركه الروح في السكون
كم مبصر لا يرى واعى
يرى ويدري الذي يكون
يا ويل من لا يرون شيئاً
إلا اذا فتّحوا العيون »

أما بيته في قصيدته المشهورة
« سيان » اذ يقول : « كم مومسٍ تمضي
عذراء للرّمس » فبيت يتمنى المعري في
لحده لو انه جرى على لسانه قبل ان
يجري على لسان شاعر جاء بعده بألف
سنة .

هذا وشئ من بحر عرضته عليك من
شعر نسب عريضه . وهو كاف ليعث
فيك الشعور بانك في حضرة شاعر يستمد
الهامه من معين صاف لا نصيب فيه
للتملّص والتدجيل والتضع والتبرّج .
وذلك المعين هو نفس الشاعر . وهي
نفس حساسة ، حيية ، صادقة ، منزهة
عن الحساسة والشعوذة ، توافقة الى الجمال
المطلق والحق الذي منه ينبع واليه
يرجع كل حق . فما أبعاد الشقة بينها
وبين الأنفس التي لا تجتم عن ابتياع
المجد بشعر مزيف وشعور مستعار !

ولعله من الانصاف لصاحب
« الارواح الحائرة » ان اذكر مواقفه
الوطنية فاختم هذا المقال بقصيدته الرائعة
التي نظمها إبان الحرب العالمية الاولى
بعنوان « النهاية » وكأنها نظمت لزمان
نحن فيه :

« كفتوه

وادفونوه !

أسكنوه

ظلمة اللحد العميق

واذهبوا ، لا تندبوه فهو شعب

ميت ليس يفتق .

ذلّوه ،

قتلوه ،

حملوه

فوق ما كان يطيق

حمل الذلّ بصبرٍ من دهـورٍ

فهو في الذلّ عريق

هتاك عرض ،

نهب أرض ،

شقق بعض ،

لم تحرك غضبه

فماذا نذرف الدمع جزافاً ؟

ليس تحيا الخطبه !

لا وربّي

ما لشعب

دون قلب

غير موتٍ من هبة

فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعف

ويصفي كُتبه .

★

ربّ نارٍ ،

ربّ عارٍ ،

ربّ نارٍ

حرّكت قلب الجبان

كاتبها فينا ولكن لم تحرك

ساكننا إلا اللسان

ميخائيل نعيمة